بجعات يرماك

كان يرماك واحداً من شعب القوزاق الذين عاشوا على ضفاف نهر الدانوب، فحضر إلى مناطقنا ووجد مباشرة طريقاً نحو سيبيريا، ولم يكن أحد من سكان منطقتنا قد ذهب إلى هناك، فأبحر إلى هناك مع جيشه عبر الأنهار.

ولكن يا ليت الأمر كان بهذه السهولة، أن جلس في الزورق وجدف بالمجاديف وعبر نهر الكاما ثم إلى نهر التور، ثم تنقل بين أنهار سيبيريا حيثما شاء، ويقولون أنك تستطيع أن تصل إلى الصين بهذه الطريقة.

والكلام سهل ولكن الفعل صعب، فلن يتوقف الأمر على التعب، فما إن تصل إلى التفرع الأول حتى تعترضك العقبة الأولى، فليس هناك نقاط علام ولا أسماء، فلا تعرف أي نهر هذا، فتجلس لتخمن في أي اتجاه توجه المركب.

فلا تفكر يا صديقي أن طريق النهر سهل. فالواقع أن ركوب المركب في نهر غريب أصعب من عبور أكبر الغابات.

فالسبب الرئيسي هو في غياب نقاط العلام، كما أنك لا تسير وحدك بل النهر يسيرك. فإذا لم تكن تعرف الطريق مسبقاً، فإنك ستتعب نفسك وتتعب الآخرين معك، ويحتمل أن تهلك الجميع معك.

فإذا كان الأمر كذلك في أيامنا هذه فإنه كان أكثر تعقيداً في أيام يرماك. ففي تلك الأزمنة لم يكن هناك ولا إنسان روسي لا في سيبيريا ولا في مناطقنا.

وكانوا يعرفون من بين الأنهار المحلية نهر التشوسوف، ولم يسمعوا أصلاً بنهر التور أو نهر اليرتيش. فكيف برأيك سيعرف الإنسان الغريب عن هذه المناطق الطريق فيها.

فلم تكن الخرائط النهرية موجودة وقتها، وكان يستحيل إيجاد دليل يدلك على الطريق. ولهذا لم يذهب أحد من سكان مناطقنا إلى هناك.

ويروي شيوخ تشوسوف القصة بهذا الشكل، في الأزمنة التي لم يكن فيها في مناطقنا ولا مدينة ولا مصنع ولا قرية روسية، أقامت عائلة ستروغانوف الإقطاعية قرية على ضفاف نهر تشوسوف، وكانت القرية صغيرة ولكنها كانت تسمى مدينة لأنها كانت محاطة بسور متين، وحول السور قناة دائرية عميقة وخندق أرضي وفيه سور خشبي عالٍ، ومن الجانبين بوابة متينة، وأقيمت الأبراج ليتم إطلاق النار منها ورمي الحجارة من المنجنيق، في حال أن جاء عدو مفاجئ. وكان سكان مدينة تشوسوف من الجنود والفلاحين.

ومن ضمن السكان كان شخص اسمه تيموفي، ولا أعرف إن كان جاء إلى هذه المدينة بإرادته أم أنه نفي إلى هناك، ولكنه كان يعيش هناك مع عائلته.

وكان لديه ثلاثة أبناء، ليس بينهم غبي أو أحمق. فثلاثتهم كانوا من الأذكياء والشجعان، وكان أصغرهم فيليب مميزاً بين الجميع، بوجهه الجميل وأحاديثه الشيقة، وقوته العظيمة.

ورغم أنه يقولون إن الناس لا يولدون قادة إلا أنك تستطيع أن تعرف منذ طفولة الإنسان إن كان سيصبح قائداً أم لا.

وكان فيليب يقود أقرانه منذ نعومة أظافره، ويحب لعبة الاستطلاع.

وكان الوقوف عند البوابة لا يسمح برؤية الكثير، فجمع من أقرانه مجموعة

وأعطى لكل واحد منهم عصا. وقد أُعطي أمر لحراس البوابة بعدم السماح للأولاد بالخروج خارج البوابة، ولكن فيليب وجد طريقة للخروج.

فكان يقترب من السور ومعه حبل، فيسند رمحه الخشبي إلى الجدار ويرمي عقدة الحبل إلى أعلى العمود، ثم يرمي رمحه إلى الجهة الأخرى، ثم ينزل إلى هناك بنفسه، ويفك العقدة بعصاه ، ويصيح: حسناً من يستطيع ذلك أيضاً؟

والذي كان من الصبية عاجزاً عن فعل ذلك يخرج من اللعبة فوراً. فيقول له فيليب: نحن لسنا بحاجة لضعاف مثلك.

وكان فيليب والآخرون يعاقبون كثيراً من قبل الأهل بسبب هذه اللعبة، ولكنهم لم يتوقفوا عن لعب هذه اللعبة. وكانوا يخرجون خارج الأسوار في كل فرصة سانحة.

وهكذا توجه الأولاد مرة إلى الغابة، وأضاع بعضهم بعضاً، فالذين كانوا أضعف خافوا سريعاً وأخذوا يصيحون وتجمعوا سريعاً، إلا فيليب لم يأت. فما العمل؟ أرادوا في البداية أن يعودوا إلى بيوتهم، ولكنهم خجلوا من أنفسهم لأنهم فكروا بترك قائدهم لوحده.

فوقفوا عند أحد الأنهار يصيحون وينادون فيليب بأعلى صوتهم. ثم استجمعوا شجاعتهم وساروا على طول النهر، وهم يصفرون ويصيحون.

أما فيليب فقد حدثت معه القصة التالية. فقد سار على طول هذا النهر وابتعد كثيراً. وسمع فجأة ضجيجاً، وأراد العودة سريعاً ولكنه غير رأيه، واختبأ في الأحراش، وجلس يستمع إلى الضجيج الذي كان قريباً منه، ولكنه لم يستطع أن يفهم مصدره. فتسلق فيليب شجرة حور عالية ونظر حوله ورأى أن النهر ينقسم إلى فرعين في الأعلى بسبب وجود جزيرة هناك.

وكانت الجزيرة عالية ولا يمكن غمرها بالماء. وبالقرب من الماء كانت حشائش خضراء عالية، وهناك رأى بجعة تمد عنقها، وتصيح وكأنها غاضبة.

وهناك دب يتجه إلى مكان البجعة عبر النهر، وهو مبلل تماماً. ويلوح برأسه ويصيح غاضباً. فتهاجمه بجعة أخرى وتضربه بجناحيها وتنقره بمنقارها.

والبجعة طبعاً طير ضخم وخاصة عندما تفرد جناحيها، وجناحاها فيهما قوة هائلة. ومنقارها الأحمر حاد وقوي. فإذا نقرت به الدب فإنه سيئن كالكلب.

ولكن رغم ذلك لا تستطيع البجعة التغلب على الدب، فتغلب الدب على البجعة ولم يبقى منها سوى الريش موزعاً فوق ماء النهر. وهنا انطلقت البجعة الأخرى تاركة عشها وهاجمت الدب، ولكن الدب قتل هذه البجعة أيضاً وسحبها إلى ضفة النهر، وكان يصيح وكأنه هو الذي يشتكي. ثم رمى البجعة جانباً وعاد إلى غابته.

وعندما هدأ الوضع نزل فيليب عن الشجرة وسار نحو العش، فوجد فيه بيض البجع. وهذا البيض يشبه بيض الإوز ولكنها أكبر وأكثر اخضراراً.

لمس فيليب البيض بيده فوجده ساخناً، فشعر فيليب بالحزن على البجعات وفكر:"ماذا لو وضعت هذا البيض تحت الإوزة التي لدينا ترقد على بيضها؟ فربما تبقى حية. ولكن يجب أن أوصلها كاملة إلى البيت".

فأخرج الخبز من كيسه وجمع أعشاباً جافة وملأ بها الكيس ووضع فيه ثلاث بيضات. فقد خاف أن يأخذ أكثر فيكسرها في طريقه. كما فكر أنه إذا أخذ بيضاً كثيراً فإن جدته ستلاحظ الأمر.

ثم اتجه عائداً إلى المدينة، ولم يفكر أنه أضاع الطريق. فقد كان يعرف أن النهر يقود إلى تشوسوف. وعندما اقترب أكثر سمع رفاقه ينادونه ويصفرون له. فأدرك فيليب عندها لماذا هرب الدب.

فمن المعروف أن الحيوان يشم ويسمع أبعد من الإنسان، ولا يحب أصوات الناس. فلا شك أنه سمع صوت الأولاد وهرب.

فاستجاب فيليب لأصوات رفاقه، وبعد فترة اجتمعوا جميعاً وروى فيليب لرفاقه ما حدث معه. وما إن سمع الأولاد بوجود الدب حتى أخذوا يتلفتون حولهم واتجهوا

obeikandl.com

بسرعة نحو المدينة. فلو كان الوضع مغايراً لعاب فيليب على رفاقه هذا الجبن، ولكنه كان مستعجلاً لإيصال البيض دافئاً وسليماً إلى البيت.

وكانت والدة فيليب متوفاة منذ زمن بعيد، وكانت جدته أوليانا تدير شؤون المنزل. وكانت عجوزاً صارمة ولم تكن تتساهل مع أحفادها ولا مع أبيهم.

فصاحت في وجه فيليب أولاً وقالت: أين كنت؟

ولكنه وجد عذراً وقال: لقد ذهبت إلى الغابة لجمع الطحالب الجافة، لأضعها في زاوية الحظيرة، ألا تذكرين أنك طلبت ذلك من والدي عدة مرات وقد نسي ذلك. بينما أنا جلبت لك كيساً مليئاً من الطحالب. ولكنها مبللة بعض الشيء ويجب تجفيفها فوق المدفأة.

وصعد مباشرة إلى فوق المدفأة الحجرية الضخمة والتي كان يوضع فوقها فراش النوم. تذمرت الجدة بعض الشيء، ثم سألته مع من ذهب ولماذا لم يخبرها بذهابه، ثم أوصته قائلة: وزع الطحالب بطبقة رقيقة على امتداد المدفأة الحجرية كلها.

وهذا ما كان فيليب يريده. فجلس في زاوية المدفأة، وأخرج بيض البجعة، ولفها بالقماش، ووضعها في أدفأ مكان، ووزع الطحالب على سطح المدفأة كلها.

وما إن انتشر الظلام حتى أخذ قبعته الشتوية وأخذ البيضات وذهب إلى الإوزة الراقدة فوق بيضاتها. فأصاب القلق الإوزة، فأخذت تنقر فيليب في رأسه ويديه، لكنه لم يكترث لها بل تابع القيام بعمله. فأخرج من العش ثلاث بيضات إوز ووضع بدلاً منها ثلاث بيضات بجع.

فبقيت الإوزة تقلق في اليوم التالي أيضاً، وتدحرج البيض بقدميها، ورغم ذلك لم ترمي البيض الغريب من العش.

والجدة أيضاً كانت تأتي لتفحص وضع الإوزة والبيض ولكنها أيضاً لم تميز الفرق واكتفت بالاستغراب وقالت:يا لها من بيضات غير متساوية في حجمها، فبعضها كبير وبعضها صغير. فما الأمر يا ترى؟

oberkanal.com

فبقي فيليب صامتاً كي لا يفضح نفسه، وكان قد رمى البيض الذي أخذه من تحت الإوزة خارج أسوار المدينة. فمرت الحادثة دون أن يكتشفها أحد.

ولكن أمراً واحداً لم ينجح، فبيض الإوز لم يفقس بعد في حين أن فراخ البجعة بدأت تخرج من البيض وهي تصيح، فذعرت الجدة أوليانا وقالت: ما الأمر؟ لماذا فقس البيض قبل الأوان، لا شك أنه علامة على قرب وقوع الحرب أو انتشار وباء ما.

فلم يسمح ذكر الإوز باقتراب الفراخ الجديدة منه، وكانت الإوزة حائرة لا تعرف ماذا تفعل، ولكنها لم تتخلَ عن الفراخ. وبالمقابل كان فيليب يحاول جهده، فلم يبتعد عنهم، بل أخذ يسقيهم ويطعمهم في الوقت المحدد. وجدته رغم كل جديتها فقد مدحته أمام أخوته الكبار.

عليكم أن تتعلموا من أخيكم الأصغر كيف تساعدون جدتكم. فانظروا كيف جلب الطحالب من الغابة، والآن يعتني بفراخ الإوز، بينما أنتم ماذا تفعلون؟ لا يهمكم شيء سوى تناول الطعام.

وكان الأخوان يعرفان السر فأخذا يسخران ويقولان للجدة: نخشى أن تتحدثي حديثاً آخر في الخريف.

فاشتد غضب الجدة وصاحت عليهم مهددة. ومع مجيء الخريف تبين للجميع أنهم يربون بجعات. فسخرت الجارات من الجدة أوليانا وقلن لها: كيف لم تنتبهي حتى ربيت فراخ البجعة، ولا يمكنك فعل شيء بهم.

وكانت الجدة امرأة حادة الطبع ولم يكن يعجبها أن تظهر هفوتها أمام الناس، فقالت: قد فعلت ذلك قصداً، فقد جلب حفيدي بيض بجع، وأراد أن يعرف إن كانت البجعات ستهجرنا إن ربتهم إوزة أم لا.

ولكنها رغم ذلك نظرت بانزعاج إلى فيليب وقالت: انظر كيف أنت، فما زلت صغيراً وأصبحت تخدع جدتك.

وكان عند فيليب همه الخاص، فاثنان من الفراخ صارا يتشاجران كل يوم،

شجاراً عنيفاً، ولا يمكنك الاقتراب منهما وإلا أوقعاك أرضاً.

أما الفرخ الثالث فلم يشارك في الشجار أبداً بل بقي يسير جانباً.

فشرح أحد الكبار لفيليب: إنها بلا شك بجعة. وطالما أن أحدهما لن يبعد الآخر تماماً عنها، فسيستمر شجارهما دائماً. وأخشى أن يقتلا نفسيهما.

وصارت الجدة تنزعج من شجار ذكري البجع بشكل خاص فتصيح على فيليب، وفيليب لا يعرف ماذا يفعل؟ وانتهى الأمر بأن أحد ذكري البجعتين لم يرجع من النهر. فبقي اثنان وانتهت الخلافات.

فهدأ الوضع ولكن الجدة أوليانا ظلت غاضبة. فقد اقترب الشتاء، فصارت تفكر كم من الطعام ستحتاجه البجعتان، ولا فائدة منهما.

فأخذت الجدة تحاول طرد البجعتين، كما أن البجعتين لم يحبانها أيضاً، وكانا يهاجمانها دائماً وينقرانها بمناقيرهما.

فقالت العجوز لابنها: افعل يا تيمو في ما تشاء ولكن اطرد هذين الطيرين من الدار، وإلا غادرت أنا، فدبر أمور منزلك كما تشاء.

فرأى فيليب أن الأمور سيئة وزاد حزنه، فلأترك علامة عليهما لربما رأيتهما يوماً فأتعرف عليهما. فربط على عنق كل بجعة خيطاً فيه خرزة، للذكر خرزة حمراء وللبجعة خرزة زرقاء.

وكانت البجعتان قد شعرتا باقتراب الفراق، فكانتا تلتصقان بفيليب ودموعهما في عينيهما. وصار رفاقه يسخرون منه ويقولن: إن قائدنا غمره الحزن.

فقال لهم: أشعر بحزن شديد على فراق بجعتي لدرجة تدفعني للبكاء. فهما سيطيران وينسيانني. وكان يبدو وكأن البجعتين تفهمان هذا الحديث. فيسرعان إلى فيليب ويضعان رأسيهما تحت يده وكأنهما يريدان رفعها ولسان حالهما يقول: كن مطمئناً فلن ننساك.

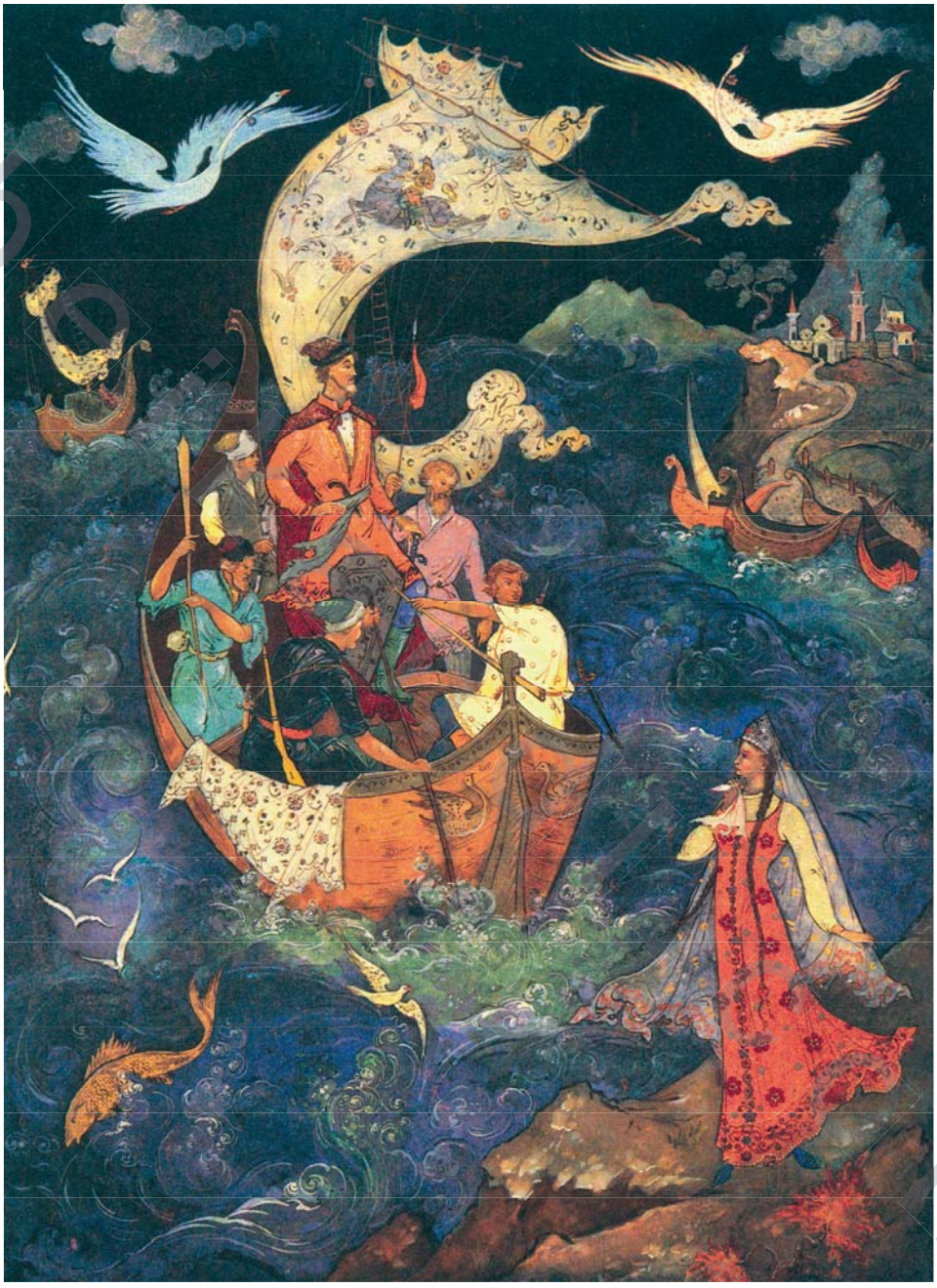

وعندما اشتد البرد وبدأت الطيور البرية ترحل باتجاه البلاد الدافئة، غادرت البجعتان. واستمر غيابهما طوال فصل الشتاء، ثم عادا في فصل الربيع. ولكنهما لم يعودا إلى دار تيموثي، بل كانا أينما رأيا فيليب يطيران إليه ويداعبانه.

كما أنهما أوقعا الجدة أوليانا وهي تطلع على الجبل مع دلوي الماء. ولم يؤذيانها بل أخافاها قليلاً وكأنهما كانا يمزحان. وكأنهما يقولان لها، إننا نتذكر حنان فيليب ونتذكر عصاك. وهذا هو ردنا عليك.

واستمر الوضع على هذه الحال، فما إن يأتي الشتاء حتى تختفي البجعتان، ومع الربيع تعودان وتزوران فيليب. ثم تعلم بنفسه كيف يجذبهما إليه.

فكان يخرج إلى مكان فسيح ويناديهما بصوتهما. فيأتي أحدهما أو كلاهما سريعاً، ويصدر جناحاهما ضجيجاً قلقاً وكأنهما يستفسران هل أزعج أحد ما فيليب. فإذا كان بجانبه شخص ما فإنهما يهاجمانه حتى يسقطانه أرضاً. ثم يركضان باتجاه فيليب ويمدان عنقيهما الطويلين ويلوحان بجناحيهما ويقفزان ويصيحان ويفرحان كما تفرح الإوزات المنزلية عندما تقدم لها الطعام.

وهكذا توالت فصول الشتاء والصيف، وكبر فيليب وصار شاباً قوياً تسعد العين لرؤيته. فحديثه ذكي وصوته رجولي وجسمه قوي وعقله راجح ووجهه جميل، فحاجباه عريضان وشعره ناعم وعيناه مرحتان وحادتان.

فشاب كهذا يخرج من بين ألف شخص، ويجد لنفسه مكانة جيدة. وهو شاب ذكي وشجاع ويحب رؤية الأماكن الجديدة. وكان أكثر ما يحبه هو أن يبحر إلى الأماكن التي لم يزرها بعد.

وبهذه الطريقة صار أفضل من يعرف الطرق النهرية. وقد سبق وتفوق في هذا المجال على جميع الشيوخ الذين صار لهم عمر في هذا المجال.

فلم يغب عن عين عائلة ستروغانوف الإقطاعية وجود شاب كهذا ، فعينوه رباناً وصاروا يمدحونه ويقولون: رغم أنه شاب ولكننا لا نخشى أن نرسل معه أي حمولة.

obeikandl.com

وبعد فترة صار فيليب معروفاً في جميع موانئ عائلة ستروغانوف. وكان أفضل ربان في المنطقة على الإطلاق. فكلما أرادوا أن يرسلوا بضائع نفيسة وكان الطريق مجهولاً وصعباً كانوا يرسلون فيليب.

وكان تعامل فيليب مع الناس جيداً، وكان الناس يحبون فيليب على ذلك. وبقي لقبه بين الناس رقيقاً فقد لقبوه منذ طفولته بالبجعة.

أما بالنسبة للزواج فقد تأخر فيليب قليلاً، فقد تزوج رفاقه منذ فترة بعيدة، بينما بقي هو عازباً، ولم يكن والده يغصبه وكان يترك هذا الأمر لفيليب. فرأى فيليب أنه آن الأوان ليتزوج وصار يبحث لنفسه عن زوجة.

ولم يكن صعباً على فتى مثله أن يجد لنفسه زوجة، فأي فتاة كانت ستقبل به بسرور، ولكنه تعالى قليلاً وكان هذا خطأه.

فقد كان في مدينة تشوسوفسك مدير، وكانوا يدعونه بالوالي، وكان عند هذا الوالي ابنة في سن الزواج. فصار فيليب يتطلع إلى تلك الفتاة.

وكان الأهل والأصدقاء يقولون لفيليب: يستحسن ألا تنظر إلى نوافذها. فهي ليست من طينتك، ورجال أبيها يمكنهم أن يؤذوك بسهولة.

ولكن في أمر كهذا هل يمكن الاستماع إلى صوت غير صوت القلب. وليس عبثاً قالوا أنك إذا أحببت بومة فلن ترضيك طيور الجنة كلها.

وكان فيليب يرد غاضباً: هذا ليس من شأنكم... وكان يفكر في نفسه:"من الذي سيؤذيني، فأنا قوي كفاية لأدافع عن نفسي".

أما الفتاة ابنة الوالي فقد تبين أن مظهرها خادع، فهي من النوع الذي يبدو في وجهه كالوردة أما في داخلها فهي كالحجر الأسود.

كانت تنظر إلى فيليب بحنان وتفكر في نفسها بأمر آخر، فقالت له مرة من نافذتها بصوت خافت، وكأنها تخاف أن يسمعها أحد: تعال صباحاً إلى بستاننا. أريد أن أتكلم معك.

obeikandl.com

ففرح فيليب كثيراً، وجاء إلى بستان الوالي مع طلوع الفجر، وكان ينتظره هناك خمسة من خدم الوالي من ضخام الجثة. وظهر الوالي نفسه فوراً وأمر قائلاً: قيدوه واجلبوه للعقاب.

فلم يبق أمام فيليب إلا أن يقاتلهم، فأخذ يوزع ضرباته عليهم. فصرعهم جميعاً وقفز من فوق السور وهرب. وطبعاً علا الضجيج والصياح واجتمع حشد من الناس وكان الوالي يصيح: اقبضوا عليه...

فرأى فيليب أن الوضع صعب، فركض باتجاه بوابة المدينة، وكانت ما تزال مغلقة في هذا الوقت المبكر، ولكن ماذا يهمه في الأمر، فقد نزع زناره وصنع منه عقدة ورماها على جدع من السور وقفز خارج أسوار المدينة. ثم وصل إلى شاطئ النهر واختار لنفسه قارباً خفيفاً ومتيناً وقاده عبر نهر تشوسوفسك للأعلى.

وكان الوقت ربيعياً والثلوج تذوب فوق أعالي الجبال، ونهر تشوسوفسك في أوج قوته. ولا يمكنك أن تخرج إلى أعلى النهر باستخدام المجداف كما يتوجب على الشخص أن يعرف النهر جيداً كي يتجنب الصخور في طريق قاربه، فاعتمد فيليب على قوته وذكائه، فقال : من الذي يمكنه أن يلحق بي في مياه كهذه؟

ولكن الأمر لم يكن كما توقعه. فمهما كانت قوة الرجل ومعرفته للنهر، إلا أنه يستحيل عليه أن يهرب من ملاحقيه إذا كانوا عدداً من الأشخاص يجدفون.

ولسوء حظه أنه أخطأ بتحريك الصارية في مكان من النهر ولم يطل قاع النهر ففقد سيطرته على القارب وبدأت المياه تحركه في دوامة. فحاول فيليب إصلاح الوضع ولكن ملاحقيه وصلوا، وكانوا يركبون ثلاثة قوارب ومجموعهم أربعون شخصاً.

فلم يبقَ أمام فيليب إلا أن يقفز إلى الماء ويسبح باتجاه الشاطئ، وليكن ما يكون. ولكنه أيضاً ليس أمراً مضموناً، فشعر أن قواه خارت، ويستحيل الاختباء في الغابة في فصل الربيع لأن الآثار تشاهد عن بعد.

وكان الوالي في مقدمة القارب الأول وكأنه يقود القوارب، وعندما رأى مشكلة فيليب فرح وصاح: ماذا؟ وقعت أيها المتسلل.

فالتفت فيليب ليرد على الوالي بكلمة قاسية ولكنه لمح في أعالي السماء طيري بجع، وعلى عنقيهما خرزتين تلمعان تحت ضوء الشمس.

ففرح فيليب وشعر وكأن تعبه قد تبخر كله فصاح بأعلى صوته يناديهما. وشاهدت البجعتين الوضع من الأعلى وعرفتا ماذا تفعلان، فهاجمت بجعة القارب الأمامي وضربت الوالي وأسقطته في ماء النهر بجناحيها وهاجمت الأخرى القارب الخلفي وأسقطت المسؤولين عن تحريك الصارية، كما ضربت الرجال الذين يجدفون ، فبعضهم خرج الدم من أنوفهم وبعضهم تأذت رؤوسهم.

فنتج عن ذلك تأخير كبير عند رجال الوالي، فقد هموا يخرجون الوالي من الماء وكان الأمر صعباً فقد كان بديناً ومبللاً وماء النهر خفيف وسريع الحركة فكاد أن يغرقه.

ولكن الوالي رغم كل ذلك لم ينسَ مراده وبقي يصيح: اقبضوا عليه حياً، فأنى له أن يهرب مني.

ولكن أنى له أن يقبض على فيليب، فقد صنعت البجعتان كل هذه الفوضى ثم حطتا على سطح الماء بجعة على يمين القارب وأخرى على يساره والتصقتا به وقادتاه بسرعة كبيرة لدرجة أن الغابة ظهرت وكأنها تركض.

فمن المعروف أنه لا يوجد طير يسبق البجعة فوق الماء، فمن بعيد يبدو أن البجعة ساكنة لا تتحرك، ولكن حاول أن تلحق بها.

وهكذا ضاع فيليب، ومهما أرسل الوالي ناسه للبحث عنه فلم يبق أي أثر. والحقيقة أن رجال الوالي كانوا يخافون الابتعاد بعيداً في مجرى النهر، أما فيليب والبجعتان فقد قطعوا منطقة تشوسوف كلها، وجاب فيليب جميع الأنهار وشاهد المناطق المحيطة،فقد كان لديه فضول قوي تجاه ذلك.

ولهذا ربما كان من حظه أن يكون أول من شرب من ماء سيبيريا من نهر تاهيل. فقد وصل إلى نهر مجهول وفهم من انحدار النهر أنه يتجه باتجاه الشرق، فشعر بفضول ليعرف ماذا هناك، ولكن البجعتين رفضتا وعبرتا عن قلقهما وكأنهما تقولان له: لا تفكر حتى أن تتجه إلى هناك، فاستمع فيليب إلى نصيحتهما ولم يتجه في مجرى نهر تاهيل.

ولم تبنِ البجعتان عشهما في ذلك الصيف ففقد بقيتا إلى جانب فيليب، فلم يقتصر فعلهما على إنقاذه من رجال الوالي وبينتا له الطرق النهرية، كما أنهما كشفتا له الكنوز المحلية.

فعندما ترفع البجعة جناحها الأيمن وتشير به إلى جيل ما أو سهل، فينظر فيليب إلى ذلك المكان ويرى ما في داخله من ثروات من الذهب والأحجار الكريمة.

وعندما ترفع البجعة جناحها الأيسر، ينكشف أمام نظر فيليب كل الغابة على امتداد أميال، فيرى أنواع الحيوان والطير التي تعيش في تلك الغابة

وبوجود البجعتين لم يكن عند فيليب أي هم من ناحية الطعام والشراب. وعندما تقترب البجعتان من ضفة ما وتصفقا بأجنحتها ينفتح في ذلك المكان ميناء صغير، فيدخلان الزورق فيه ، وهناك تنكشف مغارة فيها طعام وشراب جاهزان.

وكان كل شيء جيداً ولكن فيليب بدأ يشعر بالحنين إلى الناس. وكان فيليب يظن أن ابنة الوالي لم تسلمه بإرادتها، وإنما سمع شخص ما حديثهما.

كان يرأف لحال تلك الفتاة. ويقول: لا شك أنها الآن سجينة في بيت والدها، تجلس وتذرف الدموع حزينة. سأفعل المستحيل لأخرجها من أسرها.

ورأت البجعتان أن فيليب زاد حنينه نحو البيت فنصحتاه بعدم الذهاب ولكنهما لم تمنعاه، وعندما وجه فيليب القارب باتجاه المدينة ساعدته البجعتان كثيراً وأوصلتا القارب في يوم واحد من أعلى المجرى إلى تشوسوفسك، فأوصلا فيليب إلى المناطق التي يعرفها ثم ودعتاه ونبهتاه أنه حينما يحتاج إليهما أن يناديهما.

وبعدها طارت البجعتان وبقي فيليب وحيداً، فسعى للوصول سريعاً إلى المدينة. وانتظر حلول الظلام بصعوبة، وكان الوقت يقترب من الخريف وبدأ الظلام يحل باكراً وكان ذلك من حظ فيليب.

وكان من السهل على فيليب أن يدخل المدينة دون أن يراه الحراس، فقفز من فوق السور وسار بهدوء ولم ينبح عليه كلب حراسة واحد، فليس عبثاً أن قالوا أن الشجاع لا تنبح عليه الكلاب.

أراد فيليب أن يمر أولاً على أحد أصدقائه القدامى ليسأله عن الأوضاع ولكن كيف يمكنه أن يمر بجانب بيته ولا يدخله.

فشعر فيليب بالفضول، ووقف ينظر من وراء السور، وشعر أن شيئاً ما قد تغير ولم يستطع أن يفهم ما الأمر. فقال لنفسه:"دعني أنظر إلى الوضع عن قرب".

فتسلق من فوق سور المنزل وسار حوله فشعر بعدم وجود أحد في المنزل، فاقترب من الأبواب فوجدها موصدة. فعرف أنه لا أحد يعيش فيه. فجلس يفكر: هل حدثت مصيبة ما هنا؟ أين ذهب الجميع؟

فجلس فيليب على عتبة البيت يفكر. وكان الهدوء يسود المدينة وتسمع بعض الأصوات هنا وهناك. كأصوات إغلاق الأبواب وسعال الرجال وحديث الناس.

فسمع فيليب أغنية تغنيها فتاة في مكان قريب منه وتقول: أين أنت يا عزيزي فيليب.. يا ليتني أراك ولو للمحة... يا ليتني أبادلك الحديث ولو بكلمة...

فاستمع فيليب إلى كلمات الأغنية وعرف أنها عنه، ولكنه لم يعرف من التي تغني، وكان صوتها حنوناً. ثم سمع صوتاً آخر غاضباً، يبدو أن أم الفتاة قد صاحت عليها وقالت: عدت ثانية إلى أغانيك. الناس ناموا منذ زمن وأنت ما زلت تغنين لفارسك. سوف أمسكك من جديلتك وأضربك ولن أنظر أنك أصبحت أطول من أمك، ألا يخجلك تصرفك؟

فأدرك فيليب من التي كانت تغني الأغنية. ففي بيت جيرانهم كانت تعيش فتاة جميلة القوام وواسعة العينين ومرحة الطبع وكانت تدعى آليونا، وكانت تصغر فيليب بأربع أو خمس سنوات. فكان يعتبرها صغيرة ولم ينتبه إلى أنها كبرت وصارت صبية جميلة تعطي من أجلها كل شيء، فما بالك إذا كانت تغني لك أغنية كهذه.

ثم هدأت الأصوات وانقطعت الأغنية، ولكن فيليب شعر أن آليونا لم تبتعد عن السور بل ما زالت جالسة على عتبة منزلها.

فجذبه صوت الفتاة الحنون. فخرج من منزله وسار باتجاه كوخ الجيران ونادى الفتاة بهدوء: آليونا...

فبدا على الفتاة أنها تنتظر نداءه منذ زمن بعيد فردت عليه فوراً وقالت: ماذا ستقول لي يا فيليب؟

فاستغرب فيليب وقال: كيف عرفتني في العتمة؟

فضحكت وقالت: أستطيع رؤيتك في الظلام كما أراك في وضح النهار.

ثم تركت المزاح جانباً وقالت: قد رأيت بجعتيك عند حلول المساء وفكرت أنك ستأتي قريباً إلى المدينة. فجلست أنتظرك وأغني لك كي أحذرك.

فروت آليونا لفيليب كل شيء بالتفصيل كما حدث. فقد توفيت الجدة أوليانا في الربيع الماضي، ورغم أن الوالي كان غاضباً إلا أنه لم يزعج أحداً من عائلة فيليب. ولكن لسوء الحظ أن الإقطاعي ستروغانوف نفسه قد حضر إلى المدينة وما إن عرف بأمر هروبك حتى صرخ في وجه الوالي أمام الناس: يا لك من غبي، أريدك أن تجعل الأمر عبرة للآخرين كي يعود الهاربون بأنفسهم ويقدمون وثيقة الاعتذار.

وأمر مباشرة بإحضار تيموثي مع أولاده وجلدهم أمام الناس كي يعرف الجميع ماذا سيحل بأسرهم في حال هربوا من العبودية، ثم أمر بإرسالهم إلى أصعب الأعمال وهو تحميل أكياس الملح إلى المرفأ، ووضع يده على كل أملاكهم.

obeikandl.com

كما سأل ستروغانوف عن الأشخاص الذين كانوا يحرسون بوابة المدينة في اليوم الذي هرب فيه فيليب وأمر بجلدهم أيضاً وإرسالهم إلى المرفأ لتحميل أكياس الملح، ولكنه لم يعاقب أسرهم.

وقبل أن يغادر المدينة أمر ستروغانوف بجمع الناس وهددهم قائلاً: الذي يرى الهارب فيليب ولا يخبرني سأعاقبه بنفس الطريقة.

ثم وصلت أخبار تقول بأن تيموثي لم يتحمل الجلد وتوفي بعد فترة قصيرة ولكن الأخوين ما زالا على قيد الحياة.

أما ابنة الوالي فقد تزوجت بعد فترة المشرف العامل عند عائلة ستروغانوف. وكانت تتفاخر في يوم عرسها أمام صديقاتها بأنها تستطيع أن تخدع أي شاب دون أن يرمش لها جفن. وأن أي شاب سيستجيب لأول نداء وسيأتي إليها حالاً. فقد ناديت في الربيع الماضي الربان فيليب إلي وأخبرت والدي بذلك كي يلقنه درساً لا ينساه. كي يعرف مكانه.

فقال فيليب لآليونا: شكراً لك يا آليونا فقد نورت لي طريقي. وبت الآن أعرف ماذا أفعل. فطالما أن ستروغانوف ظلم عائلتي فلن يلق مني أي خير. أما تلك الأفعى فسأدوسها بقدمي. فلم أكن أعرف أن بجعتي الجميلة وعروسي الرائعة تعيش في بيت الجيران.

فقالت له آليونا: قل كلمة واحدة وأذهب معك فوراً.

ففكر فيليب وقال: لا يا آليونا هذا ليس مناسباً. فأنا أرى أن طريقي صعب، ولا يمكنني السير فيه ومعي عائلة.

فقالت آليونا: حسناً إن كان ذلك يناسبك أكثر فاذهب بمفردك ولن أعيقك.

فشعر فيليب بالحزن وقال: ولكنك يا آليونا انتظريني سنة أخرى.

فصاحت آليونا فرحة: هذا الأمر مؤكد، فليس عندي أحد غير، ولن يكون في أفكاري أحد غيرك.

فسالت دموعها من شدة التأثر كما هي عادة الفتيات، وناولته رزمة وقالت: خذ يا عزيزي فيليب هذا الخبز من قمح مدينتك، وهذا القميص والحزام من صنع يدي، كي ترتديهما ولا تنساني.

فدهش فيليب لقلب الفتاة الذي أخبرها مسبقاً بقدومه، وشعر بأن عينيه ستدمعان أيضاً فقال: لا تلوميني يا حبيبتي إذا سمعتِ الناس يتحدثون عني بالسوء.

فقالت آليونا: لن أصدق أي سوء عنك. والذي سيسيء إليك سيصبح هو السيئ بالنسبة لي. فقد أحببتك نقي النفس وستبقى كذلك بالنسبة لي أبداً.

فافترقا عند هذا الحد، وغادر فيليب ولم يره أحد بعد ذلك. وبعد فترة انتشر صيت يقول بوجود أناس أحرار ثائرين على أراضي الإقطاعي ستروغانوف.

فقاموا في أحد الأماكن بتحرير حمالي الملح، وفي مكان آخر قتلوا المشرف ورموا زوجته الشابة من نافذة الطابق العلوي وحرقوا منزلهما.

وقالوا إن هؤلاء الثوار سكنوا مغارة على ضفاف النهر في نهاية النهر الأبيض ولا يسمحون لقوافل ستروغانوف بالمرور. وإن قائد هؤلاء الثوار فيليب الربان.

ومن الطبيعي أن عائلة ستروغانوف أصيبت بالقلق. فجهزوا جيشاً كاملاً. فاشتد الأمر على الثوار فغادروا تلك المناطق، ولم يعد الناس يتحدثون عن فيليب.

إلا آليونا لم تنسه وكانت تغني وتقول: أين أنت يا طير البجع؟ وأين تسبح هذه الأيام؟

ومهما حاول والدا آليونا أن يقنعاها بالزواج لم ترض، ولم يكن لديها الكثير من العرسان، فهي رغم كونها جميلة وسمعتها طيبة إلا أنها كانت طويلة القامة بحيث قليل من الشبان يناسبها طولاً، وكانت تمزح بهذا الشأن وتقول: هذا العريس لا يناسبني، أخشى أن أدفعه صدفة بمرفقي فأسقطه أرضاً ونصير حديثاً لكل المدينة.

وهكذا بقيت آليونا وحيدة، وأصبحت كعادة اللواتي مثلها خياطة وحياكة ماهرة لا يوجد في المدينة من هي أفضل منها.

كما كانت تحب الاهتمام بالأطفال الصغار، وكان حولها دوماً الكثير من الأطفال، وكانت تعرف كيف تسليهم وتغني لهم الأغنيات وتحكي لهم الحكايات، وكان الأطفال يحبونها، وأمهاتهم لقبوا آليونا بفرحة الأطفال، وكنّ يحاولن إرضاءها بشتى الطرق.

ولكن العمر يأخذ حقه من كل الناس، وكبرت آليونا وغزا الشيب شعر جديلتها، ولكن عينيها صارتا أكثر اتساعاً وجمالاً.

وكان الإقطاعيون القدامى من عائلة ستروغانوف قد ماتوا جميعاً، وحل محلهم أبناؤهم، وزاد عدد سكان تشوسوف. وجاء ابن خان سيبيريا وهاجم مدينة تشوسوفسك فجأة وصد السكان هجومه بصعوبة، فتذكر الشيوخ فيليب بهذه المناسبة.

فقالوا: لو كان فيليب هنا لعرف مسبقاً بمجيء الأعداء وجهز لهم مفاجأة لاستقبالهم، ولكانوا نسوا الطريق إلى مدينتنا. فقد كان إنساناً بارعاً في هذا المجال، وعبثاً قضوا عليه.

وبعد ذلك انتشرت الشائعات تقول بمجيء القوزاق الأحرار القاطنين على نهر الفولغا فوق قواربهم إلى أراضي ستروغانوف، ويقودهم القائد يرماك.

وكان صيت هذا الإنسان رائعاً على امتداد نهر الفولغا. فيهابه تجار بخارى والأراضي الأخرى، ويتجنب خدم الملك ورعاياه المناطق التي يتواجد فيها. وجيش هذا القائد من الصنف الأول.

فلم يكن من عاداته أن ينهب الناس ومنع جنوده من ذلك ، وشكل جيشه على هذا الأساس. فمن يخل بهذه القاعدة يتم طرده مباشرة من الجيش.

فيقول القائد يرماك: لسنا بحاجة لأشخاص لديهم ضعف أمام النهب، فكيف سيثق بك رفاقك إذا كنت لا تهتم إلا بنفسك. فاذهب حيثما شئت وحافظ على ألا تصادفني في طريقك وإلا سيكون الحديث معك قاسياً.

وكانت كلمة القائد متينة. فلا يرحم الذي لا كلمة له. وكان يقول: أن عدم صيانة الكلمة ليس أمراً بسيطاً، لأنه يمكن أن ينشر الخلاف في القطعة. وكان القائد حريصاً على أن تكون القطعة موحدة والخزنة موحدة وإناء الطبخ واحداً.

ولهذا لقبوا القائد بيرماك، فهذه الكلمة في اللغة التتارية تعني القدر الذي تأكل منه القطعة كلها. وقيل أيضاً إن القائد يرماك لا يحب أن يربط جنوده أنفسهم بالأسرة. فهو يعيش وحيداً ويدعو الآخرين إلى ذلك فيقول: دربنا صعب ولا يناسب الآسرة وتربية الأطفال.

فتسمع آليونا هذه الأحاديث وتستغرب: كلمات فيليب ومن عائلة تيموثي، أيكون هو فيليب حبيبي؟

ومع مجيء الخريف تسربت الشائعات التي تقول: وصل القائد يرماك مع جيشه إلى مدينة ستروغانوف عبر نهر الكاما، وسيبحرون على الزوارق نحو المجاري العليا لنهر تشوسوف ليقاتلوا خان سيبيريا، وقريباً سيصل القائد مع رجاله من القوزاق إلى مدينة تشوسوفسك.

وكان من الطبيعي أن ينتظر السكان جميعهم مجيء القائد وجيشه، وعندما عرفوا باليوم الذي سيحضرون فيه اجتمع الناس كلهم على ضفة النهر، وركضت آليونا معهم.

وأخيراً بانت القوارب وهي تسير بسهولة في المياه الربيعية وكان الجنود يغنون الأغنيات، وعندما اقتربوا أكثر انتشرت صيحات الإعجاب بين الناس وكأنهم رأوا مشهداً غريباً.

فنظرت آليونا ورأت أمام القارب الأول تسبح بجعتان وعلى رقبة كل منهما خرزة، عند أحدهما حمراء وعند الآخر زرقاء.

وعندما اقتربت القوارب من الشاطئ حلقت البجعتان ودارتا حول المدينة وغادرتا عند المغيب.

obeikandl.com

نزل القائد أولاً إلى ضفة النهر، وكان عمره قد ناهز الخمسين، وانتشر الشيب في لحيته، ولكنه كان محتفظاً بجماله، طويل القامة وعريض المنكبين والحاجبين وعينيه مرحتين وحادتين.

وكان يرتدي لباساً بسيطاً كجنوده. وفقط سيفه كان مرصعاً بالفضة ومطعماً بالأحجار الكريمة.

نظرت آليونا وعرفته، إنه هو ولكنها لم تجرؤ على التعرف إليه، وعندما أمعنت النظر رأت أنه يرتدي القميص والحزام الذين خاطتهما له، فكادت أن تسقط من شدة المفاجأة ولكنها استطاعت المحافظة على توازنها ولم تنطق بكلمة واحدة.

بينما رأى فيليب بعينيه الحادتين آليونا وهو على ظهر القارب، ورأى من ثيابها أنها لم تتزوج.

فألقى القائد التحية على الشعب ثم اقترب من آليونا وانحنى لها انحناءة كبيرة ولمس بيده الأرض وقال: لك انحناءتي العميقة من القائد القوزاقي الحر يرماك، وتعرفين اسمه الآخر. فلا تلوميني يا بجعتي على أنني تأخرت في مجيئي إليك. فلم أقضِ برغبتي كل هذا العمر في الإبحار عبر الأنهار الدنيا، فقد كنت شاباً وكانت لدي رغبة في الإبحار عبر الأنهار العليا. فلا تنزعجي مني لهذا السبب ، فلم أنسك ولم أخلع عني قميصك وزنارك لا في الحرب ولا في العيد.

فتحدثا وفهم الناس من يكون القوزاق من نهر الدانوب المدعو بالقائد يرماك، وأين كانت تنتظره حبيبته.

بقي القائد يرماك مع جيشه في مدينة تشوسوف ثلاثة أيام. فتحدث مع آليونا عدة مرات خلال هذه الأيام.

وروى لها كل ما حدث معه خلال غيابه عنها، وكيف حرر أخوته وأصدقاءه من العبودية وكيف أغرق قوافل عائلة ستروغانوف النهرية، وكيف قضى عمره حراً وهو يبحر في نهر الفولغا.

كما شرح لها سبب مجيئه إلى مدينة تشوسوف.

قد كسبنا الكثير من الكنوز ووضعناها في خزينتنا، ولكنها لا تساوي شيئاً مقابل الكنوز التي شاهدتها بفضل بجعتي في الجبال المحيطة بنهرنا.

فقررت أن أدفع ثمن حريتي وحرية جيشي من تلك الكنوز، فإن نجحنا في ذلك كان به، وإن فشلنا فستبقى لنا سمعة طيبة بين الناس.

وما إن سمعت البجعتان أفكاري وكانتا غائبتين عني منذ فترة طويلة حتى ظهرتا وبان عليهما التشجيع لي للتوجه إلى حيث أردت. فبقيتا تسبحان معنا طوال الطريق وحيث نتوقف تطيران مغادرتين، ودائماً في الاتجاه الذي نبحر فيه.

وفي العيد الربيعي ويوم القديس سيمون، استعد القائد لمتابعة رحلته، فانضم من مدينة تشوسوفسك عدد كبير من المقاتلين إلى جيش القائد. وخرجت العائلات تودع الجيش.

وكانت آليونا تسير بجانب القائد، ورغم أنها قد تقدمت في السن إلا أنها ما زالت محتفظة بجمالها، فارتدت ثياباً أنيقة وزينت نفسها حتى بدت مسرة لعين الناظر.

كما أن القائد أيضاً ارتدى ثياباً أنيقة بهذه المناسبة، فقد كانت قبعته حمراء وثوبه فاخراً وقميصه من الحرير وسيفه لامعاً، ورأى الناس أنه ارتدى زناراً جديداً، عريضاً وعليه نقش رائع يصور بجعتين تسبحان في مياه زرقاء.

لا شك أن آليونا قد أهدته الزنار ليحفظه في طريقه الطويل.

وهكذا سارا كلاهما رائعَيْ الجمال وطويلَيْ القامة وجميلين كيوم خريفي هادئ. وحولهما الأطفال الذين كانت تدللهم آليونا. فقد كانوا يريدون التواجد إلى جانب القائد والسير معه في الشارع.

وما إن وصل القائد إلى الضفة حتى حطت البجعتان على ضفة النهر واتجهتا نحو المجرى الأعلى وصاحتا بلغة البجع وكأنهما تقولان له: حان وقت الإبحار أيها القائد.

فودع القائد الناس وودع آليونا وداعاً خاصاً وركب القارب وأمر بالإبحار.

في البداية كانت تصل الأخبار الجيدة كيف حقق القائد يرماك انتصارات على خان سيبيريا واسترجع جميع المدن، وأن القيصر سامح القوزاق بجميع ذنوبهم مكافأة لهم على انتصاراتهم وأرسل لهم هداياه.

وحكوا أن القيصر العظيم أمر بصنع قميص للقائد يرماك من الفضة ومزين بنسرين ذهبيين.

واستغرب صناع المعدن لدى الملك أوصاف طول القائد الضخم ولكنهم رغم ذلك صنعوا له القميص وفق القياس المطلوب.

فقد كان يرماك عظيم الطول وقوي الجسم. وكانت آليونا تفرح لهذه الأخبار، وتخبر الأطفال الذين يتواجدون حولها دائماً عن شجاعة ونجاح القائد.

وبقيت آليونا تسلي نفسها بهذه الأخبار مدة سنتين، ثم حدث تغيير واختفت الأخبار عن الجيش.

فانتظرت آليونا طويلاً وعند الخريف جاءت الأخبار المأساوية إلى المدينة، تقول: لم يبق الكثير من القوزاق أحياء والقائد يرماك توفي أيضاً.

فقد استطاع التتار التغلب عليه بفعل وجود خيانة في الجيش، فهاجموه ليلاً عندما كان القوزاق نائمين في سفنهم، وكان التتار كثيري العدد.

ويبدو أن القائد كان يحاول القفز من قارب إلى آخر فأخطأ المسافة ووقع في المياه العميقة.

فلم يستطع الخروج من الماء وهو يرتدي القميص الفضي الثقيل الذي أهداه إياه القيصر.

ولم يكن بمقدور البجعتين إنقاذ القائد لأن الحادثة جرت في الليل والبجعات لا ترى ليلاً.

obeikandl.com

استمعت آليونا إلى كل ذلك ولم تنطق بكلمة واحدة، وبعد فترة بكى أطفال المدينة لأن آليونا ماتت.

فأسرع الأهالي ليتبينوا الوضع وفعلاً وجدوا آليونا ميتة، فقد كانت مستلقية عند النافذة وترتدي نفس الملابس التي ودعت فيها القائد.

فبكى الناس حزناً على القائد وحبيبته، ولم يعرف أحد سبب وفاة آليونا المفاجئ.

فقالوا: قد توفيت بطريقة البجع. فإذا مات أحد الزوجين يموت الآخر.

ولم يعرف أحد إلى أين غادرت البجعتان، وهي طيور مقدرة في مناطقنا، فالذي يؤذي بجعة تلحقه المصائب حتماً.

obeikandl.com